افتراءات المستشرقين على زواج النبي ﷺ والرد عليها



أ.د/ عبد المنعم فؤاد (*)

في المقال السابق تعرضنا لما افتراه المستشرقون الغلاة تجاه زهد النبي الأكرم ﷺ وزعمهم بأنه – عليه الصلاة والسلام – كان طامعًا في الدنيا، ولم يكن من الزاهدين، وأنه كان يحب أكل أطايب الطعام، وأحسنه إلخ، وقمنا بالرد العلمي الحقيقي الذي يثبت أنه ﷺ كان سيد الزاهدين، ولم يكن من طلاب الدنيا، وزخارفها إنما مهمته: إرشاد الخلق إلى طريق الحق، ولم يورث أهله ومتبعيه دينارا، ولا درهما، إنما ورث العلم بالله، وكتابه، وشريعته كبقية إخوانه الكرام من الرسل السابقين.

وفي هذا المقال – بمشيئة من المولى تعالى – نتعقب فرية أخرى من افتراءاتهم تجاه شخص النبي الأكرم ﷺ الذي أرسل رحمة للعالمين، وجاء ليتمم مكارم الأخلاق للناس أجمعين، وخاطبه ربه بأعلى وصف لشخصه الكريم فقال عنه –جل وعلا–: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

هذا الوصف الإلهي الذي يثبت في ضمير الكون، وكيانه، ويتردد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، ويبرهن على أن الموصوف بهذا الخلق كان ينبوعا زاخرا متدفقا للفضائل، والقيم:

يأتي المستشرقون في عصورنا هذه ليتعرضوا لسيرته العطرة، ولنبله العظيم، وزواجه، وعفته، وطهارة شخصه من كل ما يتنافى مع القيم، والنبل، والعفة، والطهارة فيكذبون عليه –صلوات ربي وسلامه عليه– ويفترون!.

ومن ضمن ما افتروه هنا زعمهم بأن المصطفى ﷺ ما تزوج وعدّد في النساء إلا لميله العاطفي لهن (ولهذا أكثر من الزوجات، وحدد لأمته أربعا كحد أعلى، بينما فتح الأبواب لنفسه، وتزوج كثيرات بل عمل على فسخ زوجة ابنه ومولاه،

(*) عميد كلية العلوم الإسلامية للوافدين – جامعة الأزهر.

وتزوجها لأنها كانت جميلة)[1].

وهذا الزعم، والافتراء يكاد يجمع عليه كبار الغلاة من المستشرقين، ومنهم: المستشرق الفرنسي: مكسيم رودنسون: الذي كتب كتابا له بعنوان: (محمد) وفيه يقول:

(كان من سوء الحظ أن شعر (أي محمد ﷺ) تجاه خديجة بالعاطفة الطبيعية، التي أرواها بعدما تقدمت به السن مع النساء الشابات...)[2].

ثم يصرح في موضع آخر بأن حب (محمد) للنساء جعله يتزوج كثيرات، ويعدد...)[3].

ويقرر زميله أيضًا المستشرق الفرنسي دور منغم نفس الاتهام، ويردده قائلا: (شعر محمد بالعقد الأخير من عمره بميل كبير إلى النساء)[4].

ولا يبتعد غوستاف لبون عن هذا الاتهام لنبينا – عليه الصلاة والسلام – فيكتب: (إن ضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء لذلك أطلق العنان لهذا الحب حتى إنه رأى اتفاقا زوجة ابنه،..[5] فوقع في قلبه منها شيء فسرحها بعلُها ليتزوجها محمد)[6].

الرد على هذه الافتراءات بإيجاز وفيه أقول:

إنني لا أجرؤ أن أكمل عبارات لهؤلاء المفترين وأسطرها هنا لسوء التعبير والتلفظ الذي نطقوا به تجاه أكمل شخصية إنسانية في الوجود؛ فاضطررت لحذف كلمات هي شاهد إثبات على سوء الأدب مع من شهد له الأعداء قبل الأحباء بحسن الخلق؛ ولذلك سأناقش علميا هؤلاء حتى لا يغترّ بترهاتهم وأباطيلهم الغافلون فأقول:

إن هذا الغمز، واللمز، والتصريح الاستشراقي تجاه شخصية الرسول الأكرم ﷺ لينفر الناس عن قبول رسالته، ووصفه بأوصاف منافية للقيم كأي بشر عادي لا يعرف القيم: أمر غير مقبول لا منطقيا، ولا عقليا لما يلي:

أولًا: أنتم تؤاخذون الرسول ﷺ لأنه عدد نساءه، وتقولون هذا لأنه كان للنساء عاشقا، وحدد لأمته ﷺ أربعًا، وفي هذا ظلم وجور من وجهة نظركم.

وسؤالنا: هل أنتم تؤمنون به رسولا أم لا ؟

المعلوم أنكم هاجمتم رسالته فأنتم به من الكافرين، فلماذا تلومونه على فعل خاص به، وهو عندكم بشر لا رسول؟!.

ألا تؤكدون في بلادكم على ما يسمى بالحرية الشخصية، وهنا نراكم تهاجمون شخصا لا رسول عندكم، وتتعدون على حريته، أليس هذا ظلما، وجورًا منكم، وتعديا على الحريات الإنسانية؟!.

أما نحن فنرى أنه نبي، ورسول، وأن فعله في التعدد والزواج لم يكن بدعا لا في شرعه،

---

(١) نقلا عن زاهر الألمعي، مع المفسرين والمستشرقين ص ٨٥.

(٢) كتاب (محمد) ص٥١ – مكسيم رودنسون، وهذا الكتاب للأسف كان يدرس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة حتى وقت قريب.

(٣) انظر السابق ص ٥٥.

(٤) حياة محمد ص ٢٩٩ نقلا عن: مع المفسرين والمستشرقين ص٨٥ زاهر الألمعي.

(٥) حذفت لفظا من النص هنا ووضعت نقاطا مكانه حيث لا يجرؤ قلمي على تسجيله هنا تجاه أطهر من عرفته البشرية خلقا ونبلا ﷺ.

(٦) حضارة العرب. ص ١١٢ – ترجمة عادل زعيتر، والمقصود زواج النبي ﷺ بزينب، وقضية التبني التي سنتعرض لها – إن شاء الله – ولا ننكر أن منغم وغوستاف لهما أيضا من الأقوال الكثير في إنصاف النبي عليه الصلاة والسلام سنذكره في حينه – إن شاء الله تعالى – إلا أنهما سقطا هنا بكلامهم الهابط هذا.

ولا بين قومه ؛ فشرعه هو شرع الأنبياء قبله، والأنبياء قبله كانوا يتزوجون، ويعددون، ولم نركم تتهمونهم بالشهوانية، وسوء الخلق، وقد ثبت ذلك عن سليمان، ويعقوب، وغيرهما في الكتب المقدسة لديكم(٧).

ولم ينكر أحد منكم على هؤلاء الأفاضل، فلماذا الإنكار على النبي محمد ﷺ ؟

أما قومه ﷺ وواقعه الذي عاش فيه يشهد بأن الرسول لما جاءهم – صلوات ربي وسلامه عليه – فقد كانوا يعددون، وكان هذا نظامًا قائمًا، وواقعا لكل الناس، وقت نبوته ﷺ .

وعلى ذلك فلا غرابة في تعدده لأزواجه بينهم، ولم يتفوه واحد من كفار مكة وأعدائه بكلمة واحدة ممَّا تفوه به هؤلاء الطغاة من المستشرقين بسبب ذلك تجاه شخصه الكريم – عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام – .

ثانيا: متى عدد الرسول ﷺ ولماذا عدد؟

إن سيرته ﷺ تثبت أنه تزوج، وهو في الخامسة والعشرين من خديجة – رضي الله عنها–، وهي في الأربعين من عمرها، وقد كان ذلك من فضل الله تعالى؛ لأن رجاحة عقلها كانت خيرا على الرسول ﷺ قبل الرسالة، وعند مجيئها، إذ ثبتته، وذكرته بالخير لمّا دخل عليها مرتجفا قائلا:

زملوني إلخ، وعاش معها النبي ﷺ وحدها دون أن يُعدد أزواجا حتى توفيت، وهي في الخامسة والستين – رضي الله عنها – وهو فوق الخمسين، ولم يثبت التاريخ أن أحدًا من خصومه أثناء هذه الفترة جرؤ في أن ينسب إليه دنسا، أو يتهمه بريبة. بل كان ﷺ وهو في هذه الفترة الخصبة الرحبة في عمر الإنسان يتألق في جبينه رونق العفاف، والشرف حيث سار، ولو أراد الزواج بأكثر من واحدة آنذاك ما عاب عليه أحد؛ لأنه كان مألوفا، ولكنه لم يفعل. ولما توفيت خديجة – رضي الله عنها – ، وأراد أن يتزوج ﷺ لم يبحث عن جمال أو مال بل أراد أن يربط صلته بوزيريه أبي بكر، وعمر فاختار: عائشة بنت أبي بكر – رضي الله عنها، وعن أبيها – على صغر سنها، واختار حفصة بنت عمر – رضي الله عنها، وعن أبيها –.

ثم اختار أم سلمة –رضي الله عنها –أرملة قائده الذي استُشهد في سبيل الله، وكانت معه سودة نزلت عن حظها من الرجال لكبرها، وعزوفها(٨).

وكذلك بقية زوجاته لكل واحدة منهن لزواجها منه سبب، وكل ذلك كان بعد الخمسين من العمر.

ومعلوم أن الشخص بعد الخمسين قد لا تكون له رغبة في النساء، وهذا لا يعني أن النبي ﷺ قد ينطبق عليه في هذه الفترة ما ينطبق على غيره من الرجال فإن رصيده ﷺ من القوة الجسدية بجوار القوة الروحية، والنفسية كبير إلا أنني أريد أن أقول:

إنه لو كان ﷺ من أصحاب الشهوة كما يزعم الساقطون من المستشرقين لبحث عن النساء قبل الخمسين بكثير لكنه لم يفعل ذلك؛ لأن المتعة بالنساء ليست غايته كما تصورها هؤلاء الشهوانيون.

ثالثا: ثم إن هذا التعدد الذي وقع من النبي ﷺ كان مباحا له ﷺ – كما أشرت من قبل –ولأصحابه الكرام – رضي الله عنهم أجمعين– لدرجة أن الواحد قد يتزوج ما يشاء ولا مانع يمنعه – شرعا أو عرفا آنذاك– فلما جاء التشريع،

---

(٧) راجع سفر التكوين الإصحاح ٣٥، ٣٦.

(٨) انظر السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ٤٧٢ ، ومع المفسرين والمستشرقين لزاهر الألمعي ص٨٦ ، ٨٧.

والتنظيم من عند الله – عز وجل – طلب من النبي ألا يتزوج مرة أخرى، ويُمسك ما عنده من النساء فقال عز وجل – :

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ (الأحزاب : ٥٢).

أما بقية الصحابة، والأمة فقد تم تحديد العدد الذي يبقي عليه الرجل المسلم فلا يمسك الواحد أكثر من أربع نسوة إن استطاع أن يعدل، وإلا فواحدة قال تعالى:

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ (النساء : ٣).

وهنا نقول للحاقدين المفترين من المستشرقين:

هل هذا الأمر الذي بلّغه النبي ﷺ إلى أمته فيه تضييق على الرسول، وتوسعة على غيره أم تضييق على غيره وتوسعة عليه ﷺ ؟

إنكم تقولون في فريتكم التي بين أيدينا وشبهتكم: (إنه ضيّق على أتباعه، وجعل الحد الأعلى أربع نسوة، أما هو فله ما يشاء من النسوة)!.

ونرى غير ما ترون ؛ إذ التضيق هنا كما تتصورونه – إن استخدمنا تعبيركم جدلا – كان على الرسول ﷺ لا على أتباعه من أمته، فهو يقف عند المعدود – أي عند ما معه من النساء، وليس له عدد بعدهن، وقد صرح بذلك شيخنا الشعراوي – رحمه الله– قائلا: (وقد بينا للمستشرقين الذين خاضوا في هذه المسألة: أن رسول الله ﷺ لم يستثن في العدد إنما استثنى في المعدود حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن وليس له أن يتزوج بأخرى) [٩]، فلو أن نساءه جميعا متن في عهده ﷺ ما استطاع أن يتزوج واحدة بعدهن لأن الله تعالى قال له:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾[١٠].

أما أصحابه وغيره من أمته في كل زمان، ومكان فالواحد منهم يستطيع أن يُطلق أو يتزوج ضعف أو أضعاف هذا العدد شريطة ألا يزيد عن أربع في وقت واحد،

فتأشيرته مفتوحة –إن صح التعبير – ، ويدور معه العدد لكن الرسول الأكرم ﷺ لا يدور معه العدد بل يقف عند المعدود، فلو كان النبي ﷺ صاحب شهوة كما يصفه هؤلاء من الغلاة، ولم يكن أمينا على تشريعات ربه ما ضيّق على نفسه، ووسع على غيره، ولا وقف على ما عنده من النسوة الكرام، ولا بلغ أمته بما نزل عليه في هذا الشأن، لكنه بلّغ ما أنزل إليه من ربه بكل صدق، واستجاب له أتباعه بكل تصديق ووفاء، فكان الذي عنده تسع من أصحابه الكرام يسرع بعد سماع التشريع الرباني ويطلق خمسا، ويبقي أربعا، والخمس المطلقات من حقهن أن يتزوجن بآخرين، أما هو ﷺ فلم يستطع أن يطلق واحدة لأنه كان عنده آنذاك تسع ؛ فلو طلق خمسا ما تزوجن أحدا بعده. والسؤال: لماذا ؟

يُتبع الجواب في مقال آخر.

– إن شاء الله تعالى – .

***

(٩) تفسير الشعراوي ج١٩ ص ١٢١٠٣ – دار أخبار اليوم –مصر.

(١٠) وعند المفسرين أن آية ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ الآية ٥٠ – من الأحزاب جاءت قبل ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ﴾ رقم ٥٢، وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت (ما مات رسول الله حتى أبيح له أن يتزوج ما شاء) أخرجه الترمذي في سننه (٢٢١٦) والنسائي في سننه ج٦ص٥٦ وقال الترمذي هذا حديث حسن، و للتوضيح أكثر يرجع إلى تفسير الشعراوي ج١٩ نفس الصفحة السابقة.